

سرد المدينة وجماليات السرد في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر (قراءة في نماذج مختارة)

The city narration and the aesthetics of narration in the contemporary (Algerian novelist discourse (a reading in selected models

1 امحمد سحواج *

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، (الجزائر)، m.sahouadj@univ-chlef.dz

2 أحمد عراب

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، (الجزائر)، arabahm2@gmail.com

تاريخ الارسال: 2022/12/13 تاريخ القبول 2023/01/13 تاريخ النشر 2023/03/20

ملخص:

يتجاوز مفهوم المدينة بكثير أي حد جامع لها، و أي قراءة في إشكالاتها المعقدة والمتعددة لا تفصل في حدة الجدل حولها، وتطفح في الأفق أكثر من علامة استفهام تعري بالبحث والاستقصاء. لعل بعضها منصب أساسا حول هوية المدينة العربية بكل ما تحتزله من أبعاد هندسية، وبنى سوسيو ثقافية ورؤى أدبية هل هي عربية المنبت والروح؟ أم صنيع مشروع غربي؟ وهل يصح القول إن هذا المشروع - مع بعض التحفظ - كونه غير مكتمل الصورة والملمح نجح إلى حد بعيد في إضفاء بعض الخبرة إلى قاع تلك التجارب السابقة مع المحيط المدني، والتكيف معه وفق طبيعته وطبيعة المرحلة التي أوجدته من دون ارتباك؟ باعتبار أن دراسة ظاهرة المدينة خارج سياقها الزماني والجمالي نظرا للعلاقة القوية التي تربط الواحد بالآخر أمر في غاية الاستحالة .

الكلمات المفتاحية: السرد؛ المدينة؛ الخطاب؛ الجماليات؛ الرواية.

Abstract:

The concept of the city goes far beyond any limit that stops it, and any reading of its complex and multiple problems does not separate the intensity of the controversy surrounding it, and more than a question mark appears on the horizon that entices research and investigation. Perhaps some of them are primarily focused on the identity of the Arab city, with all its engineering dimensions, socio-cultural structures, and literary visions. Is it Arabic in origin and spirit? Or it is the creation of a Western project? Is it correct to say that this project - with some reservations - being incomplete in its image and aspect, succeeded to a large extent in adding some experience to the bottom of those previous experiences with the civil environment, and adapting to it according to its nature and the nature of the stage that created it without confusion? Considering that studying the phenomenon of the city outside its temporal and aesthetic context due to the strong relationship that binds one to the other is extremely impossible.

Keywords: narrative, city, discourse, aesthetics, novel.

تقديم:

يحدد فيصل دراج إشكالية المدينة والنهضة وفق رؤية "ريموند ويلمز" في دراسته المدينة وظهور الحداثة حيث يرى أنه "ثمة هيمنة فكرية مستمرة من جانب المدينة تتمثل في السيطرة على أخطر دور النشر والصحف والمجلات ، والمؤسسات الفكرية سواء الرسمية أو غير الرسمية." ¹ حيث تستمد خصيصتها الحداثية باعتبارها آلة إنتاج وتخصيب لأشكال الخطاب الفكري النوعي، المنفتح على اتجاهات و أطروحات سياسية وسوسيولوجية مكرسة من طرف فئة نافذة من المفكرين والأدباء، ورجال الساسة تمارس سلطتها وفق تحكمها المنظم في الوسائط الإعلامية ذات العلاقة بالعمل الإبداعي وغير الإبداعي، وفي هذا الصدد إشارة من طرف سعيد يقطين في كتابه "من النص إلى النص المترابط" إلى دور الوسائط المتفاعلة وعلاقتها بالإبداع والمبدع والمتلقي بوصفها فضاء للمثاقفة ووسيطا للإبداع، ودعا كلا من الفنان والكاتب والمفكر لأن يتبنى هذه الوسائط عن وعي بأهميتها، وجعلها جزءا من عالمه الثقافي والإبداعي والتواصلي. ²

ولعل هذا ما عزز علاقة المدينة في ابتكارها لأدوات إنتاج أنواع النصوص الحديثة، الأمر الذي تنبأت له نخبتنا في العالم العربي مؤخرا، على غرار ما هو معمول به في العالم المتقدم الذي أصبح محتكرا لهذه الوسائط، في حين غدا امتلاكها صعب المنال لأسباب متداخلة، وعلى هذا الأساس "تتعين المدينة في حديث ويلمز كمجتمع دينامي يمارس هيمنة ثقافية ، وكمجتمع مفتوح يستقبل القدرات الثقافية المتفرقة ويعيد توحيدها كما وكيفا، الأمر الذي يحدد المدينة بؤرة ثقافية تنقض القيود والمعايير المغلقة." ³

المدينة في منظور النقد الأدبي :

لم يكن موضوع المدينة بعيدا عن التناول شأن الكثير من المواضيع والقضايا المطروحة على الساحة الأدبية، و التي طالتها أقلام النقاد والدارسين ، ذلك أن الموضوع في شقه الأدبي " فكرة شديدة المعاصرة ترتبط بالقرن العشرين ومنجزاته." ⁴ وليس بعيدا عن هذا السياق يفيد إبراهيم رماني في دراسة قَدَمها عن المدينة في الشعر العربي، أن الكثير ممن درسوا ظاهرة المدينة في الأدب " يجمعون على أنها ظاهرة روائية أكثر منها شعرية ، تستقيم دراستها في الفن القصصي على نحو أسهل وأوضح من الفن الغنائي" ⁵ الأمر الذي جعلها تحظى باهتمام النقاد الغربيين، و بالأخص الذين حللوا المدينة الصناعية من مختلف جوانبها لما انطوت عليه من أحاديث تنكشف على خطاب متفرد في بنيته قراءة وكتابة وتخيل، باعتبار أن "كل عمل هو بناء لغوي ، وبالتالي هو عملية احتواء الواقع في صلابته ومحاولة تكثيفه، أو هو في النهاية متخيل." ⁶

وإذا سلمنا افتراضا أن المدينة تصلح لأن تكون موضوعا أو إشكالا أدبيا يشغله نص، فمعنى ذلك حسب رولان بارت أنها خطاب " وهذا الخطاب لغة حقيقية" ⁷ يمكن بواسطته إدراك أبعادها الحسية، والوجدانية والتفاعل معها، وبصورة أشمل نلفي عبد الصمد زايد " يحمل المدينة خطابا مضاعفا

مباشرا : يستنفر الحواس باستمرار ويشدها إلى طبيعة الأشياء والموجودات وملتو خفي يتوجه إلى أهم الملكات كالخيال والعقل والذاكرة والقلب.⁸

واضح أن فضاءات المدينة على اختلاف تشكيلاتها منظور إليها كما لو أنها نصوص، تتيح مقروئيتها رصد جوانب خفية هامة تتعلق بالإنسان في علاقته بالمدينة متموضعة في شوارعها، ومبانيها وأمكنة فسحتها كالمقاهي والمزارات، باعتبارها صورة منه ومن ثمة يمكننا قراءة المدينة وفق سياق لا يخرج عن فضاء النص، بحيث تكون أشبه بقراءتنا لنصوص أخرى، وعلى سبيل التقدير، يمكن أن يكون " فضاء المدينة من جهة موضوعا لخطاب صريح أو ضمني"⁹ يفتح على قراءات تحمل على تأويلات تتحقق فيها غاية الإبلاغ وشهوة الإمتاع، بواسطة انتقاء نصوص تخترق صلابة الواقع المرتكن نحو رحاب المتخيل، وإن كان ذلك مما " يتطلب مجهودا جماليا، ووعيا بالواقع ويتطلب هاجسا معرفيا وجماليا وبحثا في التقنيات."¹⁰

إن المدينة في تعايشنا لها واقعا وحلما، فضاء حضر متعدد الوظائف متباين النوازع والأهواء نسق من العلامات مصنف ضمن قائمة خطاب المجتمع، وعلى هذا الأساس ينبه حسن نجمي على ضرورة قراءة وفهم ما ينبغي أن تفصح عنه المدينة، كونها واهبة نفسها للخطاب أو للنص.¹¹ على تعدد أنماطه و اندماجها مستمدا قوامه مما توفر لدى الكاتب من تقنيات الصياغة وأدوات التشكيل الفني يضفي عليها إحساسه و تجربته ووعيه بإمكاناتها الخلاقة في التقريب فيما بينها، بحيث يغدو من غير الممكن الفصل بين الشعري والوثائقي على سبيل المثال.

تعدّ المدينة المستوعبة لمضامين الخطاب السردية خامة طيعة قابلة للتشكل، ومجالا حيويا للحكي وعليه " فما النص الأدبي إلا كالمدينة "¹² على رأي صالح القرماضي ، يتيح للقاص فرص المناورة عن طريق استخدام تقنية ترتيب المشاهد، وتبسيط عدسة العين عليها لاستعراض واستكناه جمالياتها من جهة، وإعادة استنطاقها من جديد كما هي مرتسمة في المشهد الحضري.

من الأهم أن نشير إلى نقطة فاصلة في توجيه منحنى هذه الدراسة نحو قراءة متبصرة، تنهض بقضايا المدينة، وإشكالياتها المقلقة وفق رؤية حديثة، بحيث ينهض من خلالها حديث المدينة في السرود الأدبية، رواية وقصة على ثنائية الهدم والبناء، بين ما هو مادي آيل إلى التصدع والتداعي يتحلق حول ما نسميه بنيانا مدينيا، وحضاريا يخص الآلة الصناعية والعمارة، ومراكز المال والخدمات والتصنيع، وما نسميه حداثة يشمل أشكال التعبير، والفكر والكتابة والفنون .

وعلى هذا الأساس، غالبا ما تتفرغ الكتابة في مثل هذه الأحداث والظروف إلى معاينة الواقع، و إدانة ملابساته السياسية والاجتماعية العاصفة به، دون مهادنة أو مقايضة، ذلك أن المتمعن في مقروئية المتون المرصودة لأدب المدينة لا يجد صعوبة في فكّ شفرة الترميز، أو التلميح بهذه الإدانة التي تحاكم فيها الكتابة المدينة، في ماضيها المشؤم، وحاضرها المزري، وهو ما يقربنا من وجهة نظر صالح إبراهيم حول هذه النقطة بالذات إذ يرى " أن تدمير الأمكنة تدمير لناسها أيضا : لعاداتهم

وتاريخهم...وبناؤها من جديد أسس لشرح عظيم بين ما كان، وما هو الآن ولرؤية ضبابية لما سيكون¹³ مما يولد انطباعات مشوبة بمشاعر الكراهية، والحق على كل ما تختزله المدينة من معاني الضياع، والحيرة والفقدان لقيم الألفة والتواصل والانسجام مع البشر في دفعهم، واختراقهم للمكان المدني. لا ينظر في المقابل أحمد جاسم الحسين إلى المدينة على أنها فضاء فحسب، بل بوصفها رمزا من رموز استلاب الإنسان واغترابه، تحمل في طياتها إشارات إلى تشكي القاصين من المدينة، وأنها توحى لهم بالضيق واليأس، ومن ثمة انقسم القاصون في نظرتهم للمدينة في الأدب العربي إلى فريقين: يرى الأول أن المدينة ومفاهيمها ليست موضوعا بعيدا عن الأدب العربي، والفريق الثاني يرى أن المدينة ومفاهيمها التي تبلورت خلالها في الأدب الحديث ما هي إلا نوع من التقليد للغرب غير "أن المفهوم العام ينبني على تصورات حادة يائسة اصطبغ بها وجه المدينة العربية".¹⁴

ذلك هو جوهر الموقف المتسم بالرفض والقطيعة لقيم المدينة نصادفه في كتابات غالب هلسا، وعبد الرحمن منيف و جبرا إبراهيم جبرا، وفي الأدب الغربي لدى دوستوفسكي، وجورج هنري والي وتلستوي وجيمس جويس وغيرهم. وهو "ما حمله لنا شاعر النابلسي في كتابه جماليات المكان في الرواية العربية من مفردات الاستلاب والغبن والمعاناة، وإطالة الشكوة والإحساس بالضجر من صور تلك الممارسات التسلطية الممتهنة لكرامة الإنسان"¹⁵ من طرف المدينة، باعتبارها رمزا من رموز السلطة الحاكمة أو الدولة، أبانت عن نظرة مشحونة حقيقة ومجازا بمفردات الحقد، ومعاني الازدراء لكل ما يشير إليه واقعها من تشئت، لكل البنى والقيم، وتلاش على مستوى العلاقات الإنسانية. حيث أوعز أحمد حسين أهمية الموضوع. المدينة. في القصة لدى العديد من القاصين إلى كون "المدينة رمزا من رموز الاستلاب الإنساني، واغترابه وليس بصفته فضاء مكانيا فحسب".¹⁶

مثلا يلمح عبد الرحمن العلام في تناوله لمجموعة "في منزل اليمام" لمحمد التازي "أن المجموعة لا يهمها من رصدها لسيرة فضاء مدينة فاس سوى تلك الأوضاع المؤطرة بالعديد من صور الضياع، والاختناق والفقدان"¹⁷ وهذا ما يقوي مبدئيا وباحتراز وجهة نظرنا، أن حضور المدينة في القصة العربية ارتبط بمشاعر القتامة، المحتقنة بمرارة الواقع المزري الذي طبعته مشاهد البؤس وصور الحرمان المرصوفة بين الأزقة وشوارع المدن العربية الموبوءة بحمى التقليد والانتساب إلى حضارة الغالب.

وقريبا من هذا التقدير يضيء لنا حسن البنا عزالدين في كتابه (الشعرية والثقافة) نقطة هامة، تتصل جدليا بإشكالية "رؤية المدينة من خلال الكتابة، ورؤية الكتابة من خلال المدينة"، حين تناول إشكالية الكتابة في سياق عناصر الطبيعة المختلفة، وعلاقتها بالوعي الكتابي من خلال محورين أساسيين: رؤية الطبيعة من خلال الكتابة، ورؤية الكتابة من خلال الطبيعة¹⁸.

فضاء المدينة بين سلطة الواقع ومنطق السرد:

توثق الرواية العربية في العديد من نتاجاتها تاريخ المدن، وتحاكي في مرارة قصص نكبتها وسقوطها، مثلما تخلد مجد تاريخها، وهنا يجدر التنبيه إلى أن هناك مرجعية بدورها تتمثل في هذا العداء للمدينة (للمدينة إجمالا)، مما يضع الكاتب في موقف المعادي للتطور الإنساني¹⁹.

وقياسا على تكرار تلك الصور والمشاهد، يستقي الكتاب رسمهم الخارجي للمدينة، انطلاقا من التنقيب في قبو الذاكرة، وقد نهضت مدينة وهران في رواية شاهد العتمة لمفتي بشير على أصباغ وألوان من بقايا الذاكرة، على الرغم من صعوبة المرحلة الراهنة، وهنا نؤكد على خصوصية وميزة النصوص الاسترجاعية محتفظة بأريج عبقها الشعري "غصنا في بحر الذكريات وبقينا نجوب أصقاعها الكثيفة والعزيزة أضواءها اللامعة والمختفية، ويحضر لوحات متعددة الألوان والظلال. ومختلفة الملامح والخطوط إلا أنها تحكي مدينة كانت تلتهم ذات مرة وأصبحت مطفأة اليوم".²⁰

يعود بنا النص المسترجع إلى بقايا مقومات مدينة تنام على نفيها، لتقف اللغة بعد تآكل مشاهدنا ومعالمها، صامدة لاسترجاع ما فضل منها، (أنوار لوحات، متعددة الألوان والظلال) تنشط الذاكرة، وتخصب آلية اللغة، في سياق يعمق التصاقها بها عبر آلية الحكى، والذاكرة، والتاريخ.

وقد يفتح الرسم الخارجي على سياقات متعددة المشارب والمقاصد، وقد أشار النص إلى ركن آخر يرتكن إليه الرسم الخارجي للمدينة، تلخصه الكتابة التاريخية، المشغوفة بفتنة القراءة، لدى شخصية "مسعود" "كنت أنظر إليه وهو يغرق في قراءة كتب تاريخية قديمة عن مدينة الجزائر كأنه يتماهى مع ماضي أجداده، وقلبه يتقطر بالحزن على المسار العنيف للذاكرة".²¹

وبالرجوع إلى المؤشرات الدالة على فعل الاسترجاع، لا يبتعد الكاتب بنا عن تلك المعالم القابضة داخل حياض الذاكرة، المحتفظة بملفوظي (بكش... ولا شيء....) " (غصنا في بحر الذكريات...) إلا أنها تحكي مدينة كانت تلمع...²² " كنت أنظر إليه وهو يغرق في قراءة كتب تاريخية قديمة عن مدينة الجزائر...²³ .

تحيل مفردات أفعال (الغوص والإبحار والغرق) إلى رغبة مجابهة السارد وصديقه مسعود للواقع، طلبا للظفر بما تبقى من تلك الصور، التي قد تعيد للمدينة بعض الحلم، والحنين والدفع لشخصي الكاتب الضمني ومسعود، وقد نبه إلى ذلك خالد حسين مفسرا علاقة الإنسان بالفضاء (المكان) في ارتباطه بالتاريخ، وتتم وفق إرادة القوة والمعرفة. وإرادة الدلالة والمعنى، بل وإرادة التأويل المستمر.²⁴

يتم التحكم في توجيه مقاصد المعرفة التي يوظفها السارد، للتوغل في المناطق السفلى للفضاء، وبصورة أعمق في سبيل إضاءة تلك الزوايا، القابضة في قاع المدينة، انطلاقا من فعل الاستدكار، على أساس أن المعرفة تتمثل في الحكاية وقراءة التاريخ وتصفح كليشيات صور الذكريات، " فالعلاقات الحكائية تترك أثرا هاما في بناء الرواية، واللغة تلعب الدور الحاسم في الاتحاد بالمكان والزمان والإيهام بهما"²⁵ ، والكاتب بهذا المعنى يترك الحرية للغة في تقييم هذه العلاقة بينه وبين الفضاء، وتحديد أبعادها في ظل متغيرات سياسية، واجتماعية وثقافية جامحة، تتطلب سياقا لغويا خاصا مسيرا للمرحلة الراهنة، راهن انكتاب النص الروائي " أغرق في استرجاع الذكريات ولملمة الفوضى محاولا أن أصل إلى فك لغز العلاقة المعقدة بيني ككاتب وبين هذا الفضاء الواسع...."²⁶

تتعدد روافد المعرفة بالفضاء الخارجي للمدينة على مستوى مكونات السرد، لبناء علاقة خاصة مع الفضاء، كان الحوار كما أسلفنا قد مهد لها في بداية النص، (كلش ولا شيء)، وإن بدت متناقضة في طرحها، إلا أن السياق حدد مسارها الطبيعي ففطنا من الكاتب إلى مقاصد اللغة الروائية، الموصولة بوعي الكاتب والقارئ، في متابعة خطوط الرسم الخارجي للفضاء، بكل ما تسمح به المعرفة "أرجع إلى كتب الشبح الفاضل عبد الرحمن الجيلالي كثيرا ما أوحى اسم هذه المدينة أفكارا وآراء كثيرة، مضطربة لدى المعنيين بتاريخ هذه البلدة، ولا سيما عند سكانها، حتى أننا نسمع منهم أحيانا حديثا يشبه سياقه الهراء والثرثرة".²⁷

إن اختراق الحجب الداخلية لكيان المدينة (العاصمة)، والتكهن براهنها ومستقبلها، لا يتم إلا بالعودة إلى كل ماله صلة بماضيها، وعبر جملة التساؤلات، وما يتطلبه الجواب من بحث في أصل الحكاية، مستقصيا روافدها المعرفية، وعلى إثر ذلك يتم التخطيط للرسم الخارجي للعاصمة، ووهران، و بالاقتراب أكثر من طريقة السارد في معاينة عالم المدينة، يحيلنا إلى آراء المؤرخين، من المهتمين بتاريخ هذه المدينة المضطرب، وبنوع من الحديث الاستهلامي، يضيء عليها غلالة من التهويم (الهراء والثرثرة).

لا شك أن السارد، وهو يحاول إتمام الشكل الحقيقي لهذه المدينة، يمارس هو الآخر نوعا من التشويق والتربق، في سبيل تقطير هذه المعرفة، عبر سياقات لغوية، غير مكتملة (حديثا يشبه سياقه الهراء)، بدءا بأصل التسمية التي تفرعت دلالاتها عبر مراحل نشأتها "ثم وأنا بين مد وجزر، غفلة ويقظة كانت الأسماء التي أطلقت على هذه المدينة موحية الدلالة وعميقة المعنى، فإذا بي أتساءل إن لم تكن كما سميت بعهدا في عهد الفينيقيين ب "إيكوسيوم"²⁸

إشكالية الفضاء وصراع الهوية:

تتطلب بنية الفضاء المدني، إعادة النظر في جدوى ملاحقة واقع هذه المدينة، عبر مسامات التاريخ وغيره، من الأخبار والنصوص الحكائية، علما أن البنية الفضائية "spatialstructur" تؤدي ثلاثا من الوظائف الإستراتيجية الوظيفة الشعرية والمرجعية في النصية، والوظيفة التأويلية على مستوى القراءة"²⁹، وهي وظائف ينوط بها الفضاء في ترسيخ المعرفة، عبر مرجعيتها التاريخية، وبلورة الرؤى حيال، العالم عبر استنتاجات وتخمينات محصورة في سياقاتها التاريخية "ويشرح الشيخ ذلك بجزيرة الشوك فهل طارد قدر الشوك حياة الأهالي منذ كانت أرغل مجهولة إلى غاية اليوم..."³⁰

والأمر يمثل نفسه في كل محاولة، للإحاطة بحدود الرسم الخارجي لمدينة وهران، إذ يرتاب السارد في تواصله معها، دون استدعاء وسائل تؤهله لاختراق حواجزها، وعلى غرار القصة، وأحاديث الشيخ، والثرثرة الساذجة، تتداخل أنماط السرد المعرفي لتقوي الاعتقاد بصلاية الموقف، "فالشاهد يتخذ صفة التحقيق التاريخي، وذلك من أجل تذكير القارئ بواقعية الأحداث، وصدق الراوي من خلال ما يحكيه لنا،"³¹ مع إمكانية استدعاء حالة شعورية اختلجت (البيركامو)، في ظروف قد تتشابه، ولكن ليس بالضرورة إلى حد التطابق لاستجلاء ملامح التقارب والتشابه بين مدينتي وهران كامو، ووهران

الكاتب " كنت قد حكيت له أنني أحضرت معي رواية كامو ومن تعجبي كيف أن الأوصاف تكاد تكون هي نفسها التي نراها اليوم، وأبدى يزيد استعدادا لمساعدتي عندما طلبت منه توفير بعض المراجع الرئيسية حول هذه المدينة"³²

تتجدد العلاقة بين النصين، المشكلين لمدينة واحدة، (وهران)، ضمن علاقة النص اللاحق، بالنص السابق (الطاعون)، تجمع بينهما رؤية مؤطرة للأحداث، والشخصيات، متقاطعة في مضمونها، مع اختلاف كبير في بنيتها النصية، على اعتبار أن رؤية الكاتب بشير مفتي تندرج فيما يمكن الاصطلاح عليه بتعدد الأجناس داخل بنية الرواية أو المستنسخ*، بوصفه حصيلة قمة المنجزات الإبداعية التي تتجاوز بنيتها الأصلية، المحافظة على الطابع المألوف، من حيث إحالتها على الواقع والمرجع.

تتمظهر المدينة عبر مسافة تحدها عين السارد، في مقام يتوافق واتساق اللغة التي تبقي على الانطباع المخيب لأفق انتظار القارئ، فالسارد يجيد تأجيل لحظة الملاقاة، على أساس أن البعد مسافة لا تسمح للغة التوغل أكثر مما تسمح به النظرة، وبالتالي تستعيد اللغة خاصيتها الجمالية، حينما تمتاز الرؤية بالمشاعر، والأحاسيس المستخلصة من جملة الأوصاف العابرة "من بعيد تظهر وهران كأنها سيمفونية حزينة، إن جمالها أخاذ، وروعها تكمن بالتأكيد في تلك الهندسة الباروكية القديمة، لقد بقيت كما تركها الفرنسيون"³³

إن الاقتراب من الفضاء، لا يحدد المعالم الخارجية للجغرافية، ولا يعين النقاط والمنعرجات الأكثر تميزا في دقة تفاصيلها، وإنما هو استقصاء لطبيعة لغة، حررها الفضاء المدني من نظامها، القائم على رؤية أحادية، في نمط يعين الحدود، والفوارق بين الأشكال الرؤيوية، وكأن الروائي فعلا "يغني بفضل استعمال الفضاء، عن التحليلي والتعليق، عندما يسند للديكور مهمة الإحياء بحالة نفسية، أو طموحات في نفس البطل"³⁴

فتنة المكان المدني وعدوانيته (Topophilie) (apocalypse):

تتأسس هذه النظرة ذات القيمة المتراوحة بين الإيجابية أو السلبية حيال المدينة، في بعدها الزمكاني، كلما صادف أن تعرض السارد إلى ما يحول نظرة ما، حبا وكرها لهذه المدينة، ومع ذلك فالمدينة ليست كتلة إسمنتية صماء، بل يخترقها دفق إنساني حي"³⁵، تتحصن على حدودها (المدينة) ألفة التوقع، وحب الانتظار، وقد عبر الكاتب عن هذه الحرقلة المتقدمة، والتي أوجد لها في نفسه، من لهفة الترقب ما يلبي ويشبع فضوله الطفولي "لم أكن أتصور أن هناك مدينة في مملكة الله بهذا الجمال حتى دخلت أصهبان إنها بالفعل نصف الدنيا كما يقول عنها أهلها وزوارها."³⁶

بهذه الافتتاحية يستقبل النص فتنة الفضاء المدينة، كما لو أن الحكيم كله يتأسس على صورة الفضاء المكاني، والفضاء النفسي، بما هو فضاء محتوي في محتوى، مولع بمغامرة التجوال والاكتشاف، ذلك أن وصف المدينة ليس سهلا، وهو يحتاج إلى معايشة طويلة ولصيقة، وإلى معرفة علمية بطرق وصف الأمكنة"³⁷ على أساس أن الاتصال بالفضاء في بعده الفني والوجداني، ما هو إلا

دليل على قدرة اكتشاف الكائن لحدود خبرته بالفضاء، وهو ما نجده ممثلاً في المقطع التالي "حين نزلت بيروت بكل صورها الخرافية التي تسكن رأسي، كنت أتمنى أن التقى فيها بفيروز وسعيد عقل ووديع الصافي وجورج حاوي ومهدي عامل وأجلس في مقهى شارع الحمراء الشهير وأركب حافلة شعبية وأذهب لزيارة متحف جبران خليل جبران في بشري"³⁸.

تتحول بيروت إلى مشروع سردي، يستدعي من السارد تنظيم وترتيب اختياراته، عبر نسق من الكلمات، تشير إلى رغبة ووعي فكري من السارد، يقوم على إعادة تمثيل شبكة الأعلام، والأماكن التي تعتبر أهم ملمح تاريخي، تناقض به بيروت الأماكن الوضيعة والسفلى، وهي نظرة أشارت إليها فتيحة كحلوش، إذ ترى "أن الصورة الشاعرية للمدينة هي نتاج عاملين أساسيين، العامل الأول يتعلق بحب المكان *topophilie*، والعامل الثاني يتعلق بعدوانية المكان *apocalypse*، وعلى أساس هذه القاعدة يخضع الناص المتلقي إلى جملة تأثيرات الصورة"³⁹.

يستمد السرد طاقته من حضور الجسد الأنثوي صوتاً وصورة، ومن الطابع الرومانسي المخيم على صورة الفضاء، في لغة تجمع بين رقة العبارة، ودقة الوصف الأسر للحواس، ومنه تستفز آلية الوصف القارئ، لتدمجه في جو شاعري، عبر قناة اللغة، لذلك يحدد وليد منير "مكان النزوع كمكان مديني، يكون فيه الإنسان فاعلاً ومفعولاً به معاً، يعمق فيه قدرته على اختيار إحساسه بهذه الحياة بين الرغبة في طلب اللذة والتحدي المتسم بالعنف"⁴⁰.

تأخذ دمشق منزلة من قلب السارد، كلما صفت رؤيته للعالم، وراقت نفسه في أجواء المطر، الذي يوشح المدينة بهالة شاعرية، يزيد من الترويح فيها صوت الأنثى بسحرها وطلتها، وهو ما يتراءى من خلال المقطع التالي "لكم هي دمشق جميلة ومنعشة وموحية تحت هذا المطر الرذاذ الشعري، وأنا أمشي وحيداً وسكتني فازو بضحكها وصوتها وجنونها، أتذكر ساحة أول نوفمبر بوهان حيث ينتصب بها تمثال الأمير عبد القادر حامي مسيحي الشام من غدر المسلمين المتطرفين، ينظر الأمير متأملاً من فوق حصانه العربي الأصيل إلى منحوتات الحوريات المثبتات على واجهة بناية أوبرا المدينة"⁴¹.

من المفيد أن نحقق في جدلية هذه العلاقة، المتجاذبة بين ظاهري الاحتفاء بالمدينة والامتعاض منها، في السرود المعاصرة التي راكمت رؤيتها ونتائجها، على ما حققته منجزات المدينة من تحولات عميقة، في اشتغالها على مضامين متفرقة، لا ينتصر فيها السرد للرؤية الأحادية امتثالاً لمبدأ التعدد الصوتي، بمستوياته في الخطاب الروائي، وإحلال زاوية النظر المسافة النفسية من الموضوع في العمل الفني "مطر خفيف ينزل على المدينة، فيجعل منها مدينة رومانسية تحيل على مثل هذه الحالة، لأول مرة بعد أزيد من سنتين أقطع ساحة المرجة راجلاً دون أن يثيرني عمودها المرعب الذي تدلت منه آلاف الجثث لشباب وشابات"⁴².

وعلى مستوى الرؤية السردية والفنية، قد تتنازع هذا المعطى قوة غير خافية، لا تقل جاذبية عن المدينة، يحتفظ لها النص بمساحات عبر فضاءاته، يمارس فيها السارد جماليات التشكيل السردية،

انطلاقاً من فعل الإبداء والكينونة، ذلك أن الإبداء والكينونة الذاتية، تعطيا المكان المدينة حرية الحركة في تشكيل جماليات المكان الذاتية، دون تسلط أو قمع من الروائي⁴³.

تتبدى جماليات المدينة، عبر انكفاء أطياف وصور الذاكرة، واستدعاء نداءات الشوق، وعلى هذا الأساس تعدّ مسألة تأنيث الحكى حول المدينة مسألة جمالية⁴⁴. انطلاقاً من عقد الصلة بين فعل المدينة في البشر، وفعل الأنثى فيهم "قالت نيللا على لسان إسحاق ما لم يقله هذا الأخير: "..... ومن المدن مدن تثير الغيرة في قلوب النساء لأنها قادرة على سلب لب الرجال بجمالها، المرأة والمدينة عدوتان يختصمان على من منها القدرة على امتلاك قلب الرجل".⁴⁵

فالأنثى والمدينة عاملان يصنعان متعة الحكى، كما ينعشان دورة السرد، بل ويحددان مصير القص كله، ودونهما تتقلص شهوة المغامرة في المكان والزمان، "فجأة يهجم علي وجه زبيدة فأشتاق إلى وهران وإلى شارع جبهة البحر وإلى كورنيشها الطويل الجميل، وأتساءل هكذا عن سر اختطاف الأمير عبد القادر من قبل دمشق التي لم يستطع الفكك من سحرها، وهو الذي طاف كثيرا من البلدان بمدينة التاريخية العظيمة"⁴⁶.

فالوجود الأنثوي هنا يثير في السارد ذكريات البلد الأم (وهران)، مجددة فيه كلما أضاء ولاح له وجه زبيدة الرغبة بالعودة، وبالتالي يمكن القول إن روح الزمان والمكان هم البشر، وهما متلازمان، ونرى من إشارات هذا التلازم عدم ثبات المكان، إذ إنه متحول أبداً عبر الزمان، لذا فقد توافقت رؤية منيف مع باشلار، إذ يرى منيف أن المكان يكتسب ملامحه من فعل البشر، وملامحهم وصورهم، أي أنه تجل لما يكونون عليه في المكان والزمان⁴⁷.

وطبيعي أن نجد العامل الثاني المتمثل في كره المدينة، قد احتلّ مسافة هو الآخر شاسعة، تمثلها الخطاب الروائي، وهي كتابات طافحة بوقفات شعرية، تمثلت في نقل الكاتب لهواجسه، مستعينا بالرؤية الداخلية، المتمثلة في أسلوب السرد الذاتي، باعتباره أسلوباً يجعل العالم كله بماضيه وأحداثه التاريخية والعاطفية كامناً في أعماق الراوي⁴⁸، يتلخص في مقاطع ومشاهد مختزلة لتلك النظرة، المشحونة بعنف الخطاب الروائي بوصفه صورة لعنف الفضاء المكاني، "قسنطينة مدينة منافقة، لا تعترف بالشهوة ولا تجيز الشوق؛ إنما تأخذ خلسة كل شيء، حرصاً على صيتها، كما تفعل المدن العريقة".⁴⁹

تتحول المدينة عبر آلية التشكيل اللغوي من فضاء للألفة، إلى فضاء الغيلة والاستلاب الشعوري، ويصبح حلم العودة أو الهروب مشروعاً سردياً، طامحاً إلى بلوغ آفاق المغامرة الأدبية، من خلال الانفتاح على قضايا الفضاء المدينة المسكوت عنه، نظراً لأشكال الأزمة التي تعصف بالمدينة، "سرت راجلاً وأنا أشعر بأن العقد الذي بيني وبين هذه المدينة التي تغتسل بالماء الآن قد انفرط، أريد أن أتححر منها نهائياً ثلاثة فقدتهم، وهم الذين كانوا لي قاعدة في هذه المدينة"⁵⁰.

وعلى نحو هذه النظرة الفنية، المتمثلة في وعي السارد بقضايا الفضاء " تنتقل صورة المدينة هذه عبر الأزمان والأجيال، مع بعض التغيرات اللازمة، للتكيف مع مستجدات الحياة، إضافة إلى أنها ظاهرة مكانية خاضعة للتطور الزمني"⁵¹.

خاتمة البحث:

تمّ التوصل في نهاية هذه الورقة البحثية، إلى بعض النتائج من خلال مقارنة المدونات الروائية التي جرى الاشتغال عليها، والتي استمدت من موضوعة المدينة حضوراً منحها ثراءً كيفياً، وتنوعاً كمياً على مستوى المتون، نظراً لارتباطها العميق بوجودان الكاتب الجزائري، حلماً وواقعاً معيشاً، مما ولد لديه قلقاً ذاتياً، تجسد عبر مسيرة الكتابة السردية، ذات الصلة بتجربته الشعرية والوجدانية. أفرزت تيمة المدينة على مستوى الحكيم أسئلة جديدة متولدة، لها علاقة بالمفهوم الفلسفي من جهة، و ببعض الممارسات السياسية والاجتماعية من جهة أخرى، ومن خلال اندماجها في تجربة السارد الذاتية تجلت الرؤى الجمالية حيال المدينة.

تفاوتت النظرة إلى المدينة من سارد إلى آخر، احتفاء وامتعاضاً، وبحسب امتلاك الكاتب للكفاءات الفنية تجلت شعرية المدينة على تعدد أشكالها وتنوع مواصفاتها، فكانت المدينة (الحاضر والماضي (الأسطورة) واليوتوبيا والحلم، والمدينة القسوة والنكبة والهزيمة، مما أفرز على مستوى بنية النص تنوعاً على مستوى الخيارات الأسلوبية وآليات الكتابة الفنية.

الهوامش:

- ¹ -فصل درّاج: نظرية الرواية والرواية العربية المركز الثقافي العربي، بيروت ط الأولى 1999 ص 158
- ² سعيد يقطين: من النص إلى النص المترابط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب ط الأولى 2005 ص 194.
- ³ فيصل درّاج: نظرية الرواية، والرواية العربية، مرجع سابق، ص 159.
- ⁴ مختار أبو غالي: المدينة في الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت أبريل 1955 ص 10.
- ⁵ إبراهيم رماني: المدينة في الشعر العربي الجزائر نموذجاً 1925 إلى 1962 دار هومة د ط 1997 ص 7.
- ⁶ محمد معتمد: النص السرد العربي شركة النشر والتوزيع المدارس الدار البيضاء ط 1 2004 ص 186.
- ⁷ رولان بارت: المغامرة السيميولوجية، تر، عبد الرحيم حزل، دار تينمل للطباعة والنشر مراكش المغرب ط 1 1993 ص 56.
- ⁸ عبد الصمد زايد: المكان في الرواية العربية، (الصورة والدلالة) دار محمد علي للنشر، تونس ط 1، 2003 ص 10.
- ⁹ جنيت وآخرون: الفضاء الروائي، تر، عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط 1 2002 ص 131.
- ¹⁰ مشري بن خليفة: سلطة النص، منشورات الاختلاف ط الأولى 2000 ص 90.
- ¹¹ انظر حسن نجمي: شعرية الفضاء، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط 1، 2000 ص 164.
- ¹² عبد السلام المسدي: قضية البنيوية دار الجنوب للنشر تونس د ط 1995 ص 142.
- ¹³ صالح إبراهيم: الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط 2003، ص 1.
- ¹⁴ انظر أحمد جاسم الحسين: القصة القصيرة السورية، ص 233.

- ¹⁵ انظر شاكر النابلسي: جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية دار النشر، بيروت ط الأولى 1994 ص 30 ص 31.
- ¹⁶ أحمد جاسم الحسين: القصة القصيرة السورية، مرجع سابق ص 232.
- ¹⁷ عبد الرحيم العلام:، الفوضى الممكنة، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، ط الأولى 2001 ص 48.
- ¹⁸ حسن البنا عز الدين: الشعرية والثقافة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى 2003 ص 185.
- ¹⁹ عبد الله رضوان: الرائي (دراسات في سوسيولوجيا الرواية العربية) دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع عمان الأردن ط 1 1999 ص 220.
- ²⁰ مفتي بشير (شاهد العتمة)، منشورات البرزخ، الجزائر، (د ط) 2002 ص 11.
- ²¹ شاهد العتمة ص 10.
- ²² شاهد ص 11.
- ²³ شاهد العتمة ص 18.
- ²⁴ ينظر خالد حسين: شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق ط 2008، 1. ص 163.
- ²⁵ عبد الحميد المحادين: التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط 1999، 1. ص 15.
- ²⁶ شاهد العتمة ص 25.
- ²⁷ شاهد العتمة ص 25.
- ²⁸ شاهد العتمة ص 25.
- ²⁹ خالد حسين: شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل. (مرجع سابق) ص 161.
- ³⁰ شاهد العتمة ص 25.
- ³¹ رشيدة بنمسعود: سيرة الواقعي والمتخيل في رواية ذاكرة الجسد، حوارات الرواية العربية، إصدار مؤسسة منتدى أصيلة، المغرب ط 2003، 1. ص 27.
- ³² شاهد العتمة ص 53.
- * المستنسخ مصطلح أطلقه سعيد علوش على سبيل المناصفة النصية في تناوله لأعمال إميل حميسي الروائية في كتابه عنف المتخيل في أعمال إميل حبيبي السداسية.
- ³³ شاهد العتمة ص 33.
- ³⁴ ج. پ. كولدنستين: الفضاء الروائي. (مرجع سابق) ص 40.
- ³⁵ حسن نجمي: شعرية الفضاء، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب ط 2000، 1. ص 145.
- ³⁶ أمين الزاوي: (شارع إبليس) الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ط 1. 2009. ص 216.
- ³⁷ وليد أبو بكر: القدس المحتلة في السرد الروائي الفلسطيني (من الاكتفاء بوصف المكان إلى محاولة توظيفه)، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب ع 4 السنة 2010 ص 306.
- ³⁸ شارع إبليس ص 184.

- ³⁹ ينظر فتيحة كحلوش: بلاغة المكان. (قراءة في مكانية النص الشعري) الانتشار العربي، بيروت لبنان ط2008، ص1284
- ⁴⁰ ينظر وليد منير: جدلية اللغة والحدث في الدراما الشعرية الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب (د. ط) 1997 ص174.
- ⁴¹ شارع إبليس ص109 .
- ⁴² شارع إبليس ص109.
- ⁴³ شاكر النابلسي: جماليات المكان في الرواية العربية. مرجع سابق ص38.
- ⁴⁴ ينظر فضيلة الفاروق: قسنطينة في الرواية الجزائرية (الرواية والمدينة) ملتقى القاهرة الثاني للإبداع الروائي العربي سلسلة أبحاث الجزء الثاني، ط1 2008 ص137.
- ⁴⁵ شارع إبليس ص216 .
- ⁴⁶ شارع إبليس ص132
- ⁴⁷ ينظر صالح إبراهيم: الفضاء ولغة السرد. (مرجع سابق) ص10 .
- ⁴⁸ ينظر آمنة يوسف: شعرية السرد في رواية ذاكرة الجسد (الرؤية- الزمن- اللغة)، مجلة فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب ع78 السنة 2010 ص256. ص257.
- ⁴⁹ أحلام مستغانمي (ذاكرة الجسد) دار الآداب للنشر والتوزيع بيروت، ط26 2010 ص142.
- ⁵⁰ شارع إبليس ص141 .
- ⁵¹ قادة عقاق: دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر. (مرجع سابق) ص20